

المحاضرة الثانية

تعليمية اللغات: النشأة والمفهوم

قبل الحديث عن مفهوم ونشأة تعليمية اللغات، من المهم أن ندرك أن اللغة هي أداة التواصل الرئيسية بين البشر، وهي التي تسهم في نقل المعرفة، والأفكار، والمشاعر. ولقد كانت وما تزال أحد الأعمدة الأساسية التي تركز عليها الحضارات الإنسانية في تطورها وانتشارها. ومن خلال اللغة، يتم تبادل الثقافة، وتوثيق التاريخ، وتأسيس العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين الأفراد والمجتمعات، ولا يمكن للإنسان أن يحقق هذه الأهداف إلا من خلال تعلّم اللغات واكتساب مهاراتها. ومع تطور الفكر البشري والتواصل بين الثقافات، أصبح تعليم اللغات جزءاً أساسياً من عملية التربية والتعليم في كل المجتمعات.

بناء على ما سبق ذكره يمكن القول إن فهم كيفية نشوء تعليم اللغات يتطلب النظر في السياقات الثقافية، التاريخية، والاجتماعية التي أدت إلى تطوير هذه العملية، وكذلك الوسائل التي كانت تُستخدم في العصور المختلفة لتحقيق هذا الهدف.

1- نشأة تعليمية اللغات:

لقد شهد تعليم اللغات تطوراً كبيراً منذ العصور القديمة إلى غاية العصر الحديث، حيث أصبح اليوم مجالاً علمياً قائماً بذاته، يشمل فروعاً متنوعة من بينها اللسانيات التطبيقية والترجمة، وعلم اللغة النفسي والاجتماعي.. وغيرها من التخصصات، كما أصبحت مهارات اللغة جزءاً أساسياً من التعليم في المدارس والجامعات. ويُعدّ تعلم اللغات أداة أساسية للاندماج في المجتمع العالمي، حيث يساعد على تعزيز التفاهم بين الشعوب ويعزز فرص التعاون الثقافي والتجاري.

والمتعمّن في تطور هذا الحقل المعرفي يجد أنه منذ فجر التاريخ كان الإنسان يسعى إلى تحسين طرائق الاتصال بينه وبين أفراد قبيلته أو مجتمعه، ومن ثم بين الشعوب المختلفة

ولأن المجتمعات القديمة كانت تستعمل لغات شفوية تعبر عن حاجات الإنسان اليومية ومشاعره الأساسية لم تكن الحاجة ملحة لتطوير أساليب تعليمها، ومع تطور المجتمعات، وظهر أنظمة الكتابة والقراءة ظهرت الحاجة إلى تعليم اللغات، مما تطلب تطوير طرائق وأساليب فعالة لتعليم الأجيال الجديدة كيفية استخدام هذه الأداة المهمة. ومنه بدأت فكرة تعليم اللغات تأخذ شكلاً منظماً، حيث قامت الحضارات القديمة بتأسيس مدارس ومراكز تعليمية لتعليم اللغات، لا سيما في مجالات التجارة والدين والفلسفة. فمثلاً، في الحضارة المصرية القديمة، كانت المدارس تهتم بتعليم الكتابة الهيروغليفية، بينما كانت الحضارة اليونانية تركز على تعليم الفلسفة والنحو اليوناني. وفي الإمبراطورية الرومانية تم تعليم اللاتينية بوصفها لغة رسمية الأمر الذي أثر في تطور التعليم اللغوي في أوروبا.

ومع مرور الوقت، ومع تطور أنظمة التعليم في العصور الوسطى وعصر النهضة، بدأ الاهتمام بتعليم اللغات الأجنبية يزداد، حيث أصبح من المهم للطلبة في أوروبا تعلم لغات متعددة مثل اللاتينية والفرنسية واليونانية. كما بدأ العلماء والمترجمون في نقل المعارف من ثقافات أخرى من خلال الترجمة والبحث، وهو ما جعل تعليم اللغات يتوسع ليشمل دراسة اللغات القديمة والحديثة على حد سواء.

وفي العصر الحديث، ومع تطور التكنولوجيا ووسائل الاتصال، أصبحت اللغات أكثر تنوعاً وانتشاراً. فالنقد في مجال التعليم عبر الإنترنت، واستخدام تطبيقات الهواتف الذكية، والبرامج التعليمية المتخصصة، جعل تعلم اللغات أسهل وأكثر مرونة، مما أتاح للأفراد في مختلف أنحاء العالم فرصة تعلم لغات متعددة في وقت قصير وبأساليب متنوعة.

لهذا وبناء على ما سبق نستطيع الجزم قطعاً بأن تعليمية اللغات من حيث الصفة العلمية والاستقلالية يعدّ علماً حديث النشأة، ارتبط ظهوره في بادئ الأمر باللسانيات التطبيقية التي كانت معظم بحوثها تتجه إلى تعليم اللغة الأجنبية، مما دعى بعض الباحثين في العصر الحديث إلى اقتراح مصطلح آخر يكون مقصوراً على تعليم اللغة الأجنبية، وذلك مثل صنيع ولكنز في اقتراح تسميته "الدراسة العلمية لتعلم اللغة الأجنبية"، واقتراح ماكاى تسمية "علم

تعليم اللغة"، ولكن هذه الاقتراحات وغيرها لم تفلح أي منها أن تحل محل مصطلح اللسانيات التطبيقية.

وارتبط مصطلح تعليمية اللغات أيضا بمفاهيم مختلفة لتخصصات لها علاقة وطيدة بها، ففي إيطاليا مثلا ارتبطت تعليم اللغات بعلم النفس البيداغوجي واللسانيات النفسية، وفي بلجيكا ارتبط مفهومها بالبيداغوجيا، وظل هذا الحقل المعرفي تابعا للعديد من الفروع والتخصصات التي تهتم بدراسة اللغة، لكن ملامح هذا العلم بدأت تظهر شيئا فشيئا مع نهاية الستينات وبداية السبعينات من القرن الماضي أين شهد ميدان البحث اللساني ثراء معرفيا وعلميا لم يسبق له مثيل في أوروبا وأمريكا، وسبب ذلك مرده إلى تطور البحث اللساني مما أدى إلى استقلال تخصصات جديدة كان لها الدور البارز والعظيم في تدعيم الأرضية العلمية لهذا الحقل من الدراسة أهمها اللسانيات الاجتماعية و اللسانيات النفسية وعلم التربية.

وبالمقابل كان للفشل الدراسي الناتج عن تدني المستوى التحصيلي للمتعلمين في كل المواد التعليمية: الرياضيات، الفيزياء، القراءة، القواعد... إلخ، العامل المباشر وراء استقلالية تعليمية اللغات، حيث انتقل الفشل المدرسي إلى الفئة المتعلمة، وذلك بنسبة كبيرة جدا، واتخذت هذه المعضلة في نهاية الستينات والسبعينات بعدا محليا وعالميا تقاسمته كل بلدان العالم، هذا الوضع الجديد الذي آل إليه التعليم شجع الباحثين التربويين على تطوير أبحاثهم المتميزة، والرقى بهذا الحقل التعليمي إلى أن يصبح علما قائما بذاته، فبعدما كانت التعليمية في الفرنسية في الماضي مرادفة لكل ما هو مدرس، ويقصد به الطريقة التي تتوصل بها إلى المعرفة، فإن هذا المصطلح قد عرف بعد السبعينات تطورات كبيرة في منهجية البحث التطبيقية، ومنهجيته النظرية الاصطلاحية جعله ميدانا مستقلا بذاته.

2- مفهوم تعليمية اللغات:

لا بد من الإشارة- قبل ذكر التعريف- إلى أنه لا يوجد اتفاق بين الباحثين على مفهوم موحد، إذ يختلف التفسير بناءً على المراجع الفلسفية والتربوية التي يعتمد عليها كل باحث

فبينما يركز البعض على الجوانب النظرية للغات ودراستها بوصفها ظاهرة لغوية بحتة، يميل آخرون إلى التركيز على الجوانب التطبيقية والتعليمية المرتبطة بتعلم اللغات في بيئات تعليمية مختلفة، ولكن لابد أن نبين بأن مفهوم تعليمية اللغات يشير إلى تعلم واكتساب اللغات وتطوير مهاراتها، سواء كانت لغات أم أو لغات أجنبية، عبر مجموعة من الأساليب والطرائق التعليمية التي تهدف إلى تحسين القدرة على التحدث و الكتابة والاستماع والقراءة. وفي هذه العملية، يتم تزويد المتعلم بالمعرفة اللغوية والنحوية، بالإضافة إلى المهارات الثقافية التي تساعد في فهم السياقات الاجتماعية والتواصلية التي تُستخدم فيها اللغة.

من خلال المفهوم السابق نلاحظ أن ميدان هذا العلم هو تعليم اللغات سواء كانت لغات منشأ أو لغات أجنبية، كما أن الغاية القصوى من تعلم اللغة هو القدرة على استعمالها استعمالاً مناسباً في كل المواقف والمقامات والإنتاج الإبداعي المتميز عند التعبير، لذلك ما يهم في تعليم اللغات هو الجانب الوظيفي الذي يفيد عملياً في الميدان التعليمي.

وبما أن كل لغة تحمل شحنات أو أبعاد ثقافية فهي ثقافة في حد ذاتها، ولهذا فنحن حينما ندرس لغة ما فإننا نعمل ضمناً على تبليغ الثقافة التي تتضمنها وتحملها، واللغة من هذا المنظور أداة نقل وإنتاج للثقافة.